يعقوب ارتين باشا

وانما المرء حديث بعده

قضى الله الذي لا مرد لقضائه ان تخسر مصر في شخص هذا الراحل الكريم نابغة من اعظم نوابغ العصر ونادرة يضنّ الزمان بمثلها في عجادة الاصل وكرم الطبع وحدة الذكاء وفرط النشاط واصالة الرأي وغزارة العلم ومضاء العزيمة وصدق الفراسة وطيب القلب ودماثة الاخلاق وسمو الادب وحسن المعاملة هذا الى الاحاطة بعدة من اشهر اللغات العصرية والخبرة باحوال اشهر الامم الحالية. وعلى الاجمال كان الفقيد من الافراد التي يعد الواحد منها بالآلاف

كان الفقيد فرعاً فارعاً من اسرة ارمنية جليلة الشأن رأسها الامير هاجوب وواسطة عقدها هذا الراحل الكريم. اشرقت شمس حياته بالقاهرة في ١٥ ابريل سنة ١٨٤٢ فلمح والدهُ ارتين بك من مخايل هذا المولود السعيد علامات المجد وتفرس في جسمه الصغير انهُ يقل نفساً كبيرة خلقت للمعالي وكذلك كبار النفوس لها امارات تتكلم عنها فعُني بتربيته احسن ما يُعنى اذكياء الآباء بتهذيب نجباء الابناء وعهد في تعليمه الابتدائي الى اجد اساتذة الارمن الاكفاء فظهر منهُ وهو في حداثة السن من النباهة وتوقد الذهن وسرعة الخاطر ونبالة المقصد ما حقق فراسة والده فيه وعند ذلك الحقهُ ببعض المدارس المختارة بباريس فمكث بها نحو سبع سنين الى سنة ١٨٦٠ وهو يتغذى بلبان المعارف ويرتوي من مناهل العلوم. وقد زارهُ والدهُ في خلال هذه المدة بباريس وكانت هذه الزيارة آخر العهد بينهما لوفاة والده سنة ١٨٥٩

ثم عاد الى مصر سنة ١٨٦١ وتعلم التركية والفارسية والعربية ثم رجع الى اوربا سنة ١٨٦٦ وساح في ممالكها الشهيرة سياحة طويلة تزوّد فيها بما شاء من العلوم السائدة في تلك الممالك حتى برع فيها ودرس في اثناء تلك السياحة احوال تلك الممالك وبذل جهوداً كبيرة في تعلم اشهر لغاتها حتى اتقن كثيراً منها ووقف على آدابها

وفي سنة ١٨٧٣ تفضل ابو الاشبال الخديوي اسماعيل باشا رعاية لكفاءة

هذا الشاب النبيل وقياماً بحقوق والده ارتين بك لما ادّاه من الخدم الجليلة للحكومة فانعم عليه بالرتبة الثانية واصدر امره الكريم بتعيينه مربياً لفرقة الامراء الكرام واختصهم حضرة صاحب العظمة مولانا السلطان فؤاد الاول فظهرت عند ذلك مواهبهُ العالية ومزاياه السامية التي احلتهُ مكان الوالد الرؤوف والمربي الحكيم

فارتفع بذلك مقامهُ في اعين الامراء الكرام وعظم قدرهُ لدى ابي الاشبال فكافأهُ على هذه الكفاءة العالية بتعيينه الكاتم الاوربي للاسرار سنة ١٨٧٩ . ثم تقلب بعد ذلك في عدة مناصب خطيرة مملوءة بالمعضلات لا يقوى على تذليل صعابها الاَّ من اتاهُ الله مقدرة فائقة ودهاء عظيماً وغناء كبيراً وفي جميعها فاز بالقِدح المعلى ورمى الى الغرض المقصود وجلى عن نفسه بانهُ السبّاق الى اقصى الغايات الى ان عين في سنة ١٨٨٤ وكيلاً لوزارة المعارف العمومية فأتى في اثناء تقلده هذا المنصب السامي من جلائل الاعمال وانجز من كبار المشروعات مايقضي بالدهش والاستغراب

ويؤخذ من كلامهِ في كتاب القول التام في التعليم العام ومما كان يشاهد من تصرفاتهِ ان الغاية التي وضعها هذا المصلح الكبير نُصب عينهِ هي التدريج في تعميم التعليم بكافة انواعهِ ونشرهِ في جميع انحاء البلاد وترقيتهِ الى اعلى درجة يصل اليها الامكان

وان الخطة التي رسمها للوصول الى تلك الغاية هي :

اولاً — تحسين حالة المعاهد العلمية الموجودة بحيث تكون وافية بالغرض المقصود منها

ثانياً — الاستكثار من تجديد المعاهد العلمية على احسن طراز الى ان يتم منها العدد الكافي لحاجة البلاد

ثالثاً — الحصول على العدد الكافي من المعلمين الاكفاء والمباني اللائقة للمدارس الموجودة والتي تستجد

رابعاً — الحصول على المال الذي تعد بهِ المحال والعمال

فكان يرى ان مسألة نشر المعارف موقوفة الحل على ثلاثة اشياء المال والرجال والمحال . اما المال فكان يرى انهُ في مصر ميسور بعد انتشار الامن والعدل في

ربوعها ومتى وجد المال فمن السهل ايجاد المحال ولكن العقدة كلها في الحصول على الرجال ولذلك كان اكبر همهِ منصرفاً في اختيار العمال الذين يديرون دولاب الاعمال في وزارة المعارف واعداد المعلمين الاكفاء الذين يوكل اليهم بث العلوم في الشبيبة المصرية والقيام بتربيتها على احسن منهاج وهذا هو السر في انتقائهِ خيرة المستخدمين للادارة والتفتيش في الوزارة واختيارهِ احاسن النظار وجياد المعلمين للمدارس وفي سعيهِ المتواصل في الاغداق عليهم بالاموال وترقيتهم الى الدرجات العالية .وكان لهُ نظر ثاقب وتفرس تام في انتخاب العمال حتى انهُ لم يكد يخطىء ظنهُ فيمن يختارهُ لعمل من الاعمال وكان لا يضع الثقة في بعض الرجال الا بعد خبرة تامة لحنها صدق الفراسة وسداها دقة الاختبار حتى اذا وجده اهلاً لتلك الثقة اطلق لهُ الحرية في انجاز الاشغال مع التلطف في نقدها وبيان ما لا يكون صالحاً منها وحسن الارشاد الى وجهة الصواب فيها

ولذلك تم على يديهِ كثير من المشروعات العظيمة كبناء مدرسة المعلمين الناصرية الفخم الرحيب بالانشا نموذجاً لمدارس المعلمين وبناء مدرسة الناصرية الابتدائية الضخم نموذجاً للمدارس الابتدائية وبناء المدرسة السنية الزاهي نموذجاً لمدارس البنات وبناء مدرسة عبد المنعم الاولية المشيد نموذجاً للمدارس الاولية. فهذه امثلة جزئية لما كان يقصدهُ من تحسين حالة المباني وتجديدها على احسن حالة وكل ما استجد بعد ذلك من مباني المدارس على اختلاف انواعها فانما هو الواضع لاساسهِ والراسم لمثالهِ

وأما ما كان يرمي اليهِ من الاستكثار من المعلمين فمن شواهدهِ توسيع نطاق مدرسة المعلمين الناصرية والمعلمين السلطانية والمعلمات السنية وزيادة عدد طلبتها واحداث مدارس المعلمين والمعلمات الاولية التي انتشرت في القطر بناء على ما وضعهُ لها من الاساس واحتذاء لما رسمهُ لها من الانظمة

واما تحسين حالة التعليم والتربية في مصر فلم يدع وسيلة الا اتخذها للوصول الى هذا الغرض فكان يساعد على تأليف الكتب المفيدة ويكافىء المؤلفين بسخي الاموال وهذه الكتب التي ألفت على عهدهِ وحاز مؤلفوها الجوائز السنية منها منتشرة في المدارس معروفة لدى الخاص والعام بل كان في بعض الاحيان يقرأ بنفسهِ الكتب ويختار منها للمدارس ما يراه صالحاً للدراسة بها.والفضل في ترقية

التعليم بالمدارس الثانوية والخصوصية والعالية اما حاضر راجع اليه ومتعلق على يديه

ومن مآثره الغراء انهُ كان لتيسير اللغة العربية يحث على اجادة تدريسها ويدر الاسوال على القائمين بشؤونها. ولقد كان مرتب معلمها بالمدارس لا يتجاوز اربعة الجنيهات في الشهر فما زال يسعى حتى رفع هذا المرتب الى ما يوجد عليهِ الآن. ولقد قال لبعض مفتشي اللغة العربية في هذا الصدد: « ما دمت في وزارة المعارف فلا ادع احداً من مدرسي العربية يترتب اربعة جنيهات ابداً وانما اسلك في رفع هذا المرتب سبيل التدرج »

ولولا ثباتهُ لما فتح المرحوم الشيخ حمزه فتح الله لياه ولما اتى في ترقية دراسة العربية ببعض ما اتاهُ. وانما ذكرنا تحسينهُ حالة مدرسي العربية المالية هنا على سبيل المثال والاَّ فان هذا التحسين قد شمل جميع المدرسين وكافة المستخدمين حتى لم يكد يخلو مستخدم بوزارة المعارف على عهدهِ من نعمة طوقهُ بها الفقيد الثابهُ الله بالحسنى وزيادة يعترف بذلك جميع الباقين على قيد الحياة منهم

ومن غُرر مآثرهِ ادخالهُ في المدارس فن التربية الذي انتظمت بهِ الدراسة وسارت على أمثل الطرق التي وصلت اليها تجارب المتقدمين وكانت قبلهُ في غاية الاختلال والاعتلال مفسدة للعقول مهوشة على الافكار كما ان منها سن القوانح والقوانين ووضع مناهج التعليم على اساس متين وتأسيس نظام الامتحانات العمومية والشهادات الرسمية المخولة للاستخدام في مصالح الحكومة كما ان منها ان اصدقاءهُ من المستخدمين بوزارة المعارف دعاهم داعي الاعتراف بالجميل وحسن الصنيع ان يكتتبوا لعمل تذكار لهُ حينما عزم على ترك الوزارة فقضت سجاياهُ الكريمة بان ترصد فوائد المبلغ المكتتب بهِ سنوياً للاستعانة بها على الحاق اول الناجحين في امتحان شهادة الدراسة الثانوية في احدى المدارس العالية التي يرغبها

ولو ذهبنا الى تعديد ما خلدهُ هذا المصلح العظيم من الآثار الجليلة في ايامهِ بوزارة المعارف لطال بنا الكلام ومنعنا منهُ ضيق المقام وفيما ذكرناهُ كفاية للدلالة على ما كان متصفاً بهِ من حسن الادارة وشرف الغاية

كان الاصلاح ملازماً لهذا الراحل الكريم اينما حلَّ والتوفيق محالفاً لهُ اينما سار فانهُ لما عُيِّن عضواً مصرياً في مصلحة السكة الحديدية المصرية ساعد بآرائهِ الصائبة العضوين الآخرين الانجليزي والفرنسي على امتداد الخطوط الحديدية

وازدواجها وتنظيم المحطات وانشاء محطة القاهرة الكبرى على طرازها الغربي الحالي وتحسين الآلات والعجلات وتنظيم المصانع الكبرى ببولاق

ومما يعرف لهُ انهُ كان في مقدمة الذين فكروا في انشاء الخط من كبري الليمون الى المرج وان هذه الفكرة عرضت لهُ عند زيارتهِ لبعض معارفهِ بالمطرية . وهذا الخط من اكثر خطوط السكك الحديدية ايراداً وانفعها للاهالي اخرجتهُ من حيز القوة الى حيز الفعل نظرة ثاقبة من نظرات هذا المفكر الكبير

هذا وقد تولى الفقيد زيادة على ما تقدم من المناصب اعمالاً جليلة خارجة عن دائرة اختصاصهِ الرسمي من اهمها انشاء دور الكتب السلطانية والآثار العربية والآثار المصرية ورياسة الوفد الذي ارسلتهُ الحكومة المصرية الى المؤتمر الشرقي الثامن بمدينة قينا وكان ذلك فاتحة حضور المصريين مؤتمرات المستشرقين الغربيين

ولقد كانت صفات هذا الرجل العظيم معروفة لدى خاصة الغربيين اكثر مما هي معلومة عند عامة المصريين فكان لهُ من عظماء الامم الغربية وعلمائهم ومشهوري رجالهم كثير من الاصدقاء والمعارف يفوقون العدّ ويتجاوزون الاحصاء . ونال من ممالك اوربا على اختلافها عدداً كبيراً من الوسامات الرفيعة تنويهاً بشأنهِ واشادة بذكرهِ واعترافاً بقدرهِ

هذه سيرة ذلك الرجل الكبير في اعمالهِ العمومية اما سيرتهُ في امورهِ الخصوصية فقد كان بالمنزلة العالية من المروءة والمكانة السامية من طيب القلب لا يقصدهُ طالب حاجة من مالهِ او جاههِ الاَّ قضاها بكل ارتياح وسرور ولا يرى بائساً او مسكيناً الاَّ حنَّ لهُ وعطف عليهِ

توفي بعض مساعدي المفتشين بالمعارف في الاقاليم واعوز اهلهُ المال للانفاق على جنازتهِ فسعى كبير المفتشين عند وزير المعارف لكي تشيع جنازتهُ على نفقة الحكومة فتردد الوزير في هذا الامر لتشديد وزارة المالية في مثلهِ وكان الفقيد حاضراً بالمجلس فسأل عن مبلغ ما ينفق في الجنازة فقيل لهُ عشرة جنيهات فقال اصرفوها وليكتب الى وزارة المالية في احتسابها من الخزانة العمومية فان اجابت الطلب والاَّ فاني ادفعها من مالي

توفي استاذهُ في العربية وكان فقيراً وترك اسرة كبيرة فقيرة وكان الفقيد

يعطيهِ مرتباً شهرياً فجرى هذا المرتب على اسرة سلامه بعد وفاتهِ ولم ينقص منهُ شيئاً وسعى لاحد افراد الاسرة في عمل من اعمال الحكومة يرتزق منهُ هو واسرتهُ مع ما كان يدفعهُ لهم شهرياً من ماله الخصوصي

هذه بعض نوادر مما يدل على ما كان لهُ من المروءات والمبرات وما من اكتتاب في الامور الخيرية الا كانت قائمتهُ مصدرة باسمهِ المحبوب

تلكم يا بني مصر حياة هذا الرجل العظيم الذي غربت شمس حياتهِ عنا وخلفت لنا من اللوعة والاسى على فقدهِ ما نسأل الله تعالى الصبر عليهِ كما نسألهُ لهذا الراحل الكريم ان يحسن جزاءهُ في الدار الآخرة على ما اتاهُ من صنوف الاحسان

تنبيه — قد استقينا معظم ما كتب هنا من ترجمة حياة الفقيد لسيادة المطران سارافيم دافيديان مطران الارمن الكاثوليك بمصر سابقاً

ناظر مدرسة المعلمين الناصرية
محمد شريف

البواخر بعد الحرب

« الحضارة هي النقل » (١)

تدلُّ جميع العوامل البحرية والحربية والاقتصادية التي أنالت الحلفاء النصر على الدولتين الجرمانيتين وحلفائهما ان البواخر التجارية وخصوصاً الانكليزية منها هي سبب تحرير اوربا اذ لولاها ما امكن نقل الجيوش الانكليزية والاميركية الى ميادين القتال ولا امداد جيوش الحلفاء بالمؤونة والذخيرة وغيرهما من الحاجيات ولا تجهيز اساطيلهم بالفحم والزيت والمؤونة والذخيرة ولا ارسال الطعام واللباس الى الاهالي غير المحاربين وراء خطوط النار . اما الآن ورسول السلام يقرع باب اوربا يطلب مأوى دائماً لهُ فان « وزير التجديد » في انكلترا يقول من خطبة لهُ « ان الملاحة راس مسئلة التجديد » يريد بذلك انهُ سيكون للبواخر

(١) من مقالة بقلم السر اوشيلد عرد نشرت في مجلة « وستمنستر الانكليزية »